أهمية التحقيق وصعوباته

The Importance and Difficulties of Codicology

محمد شيخ *

تاريخ الإرسال: 2022/06/25	تاريخ القبول: 2022/09/18	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

تزخر البلدان العربية بعدد كبير من المخطوطات تضم بين أوراقها مواد مهمة في شتى التخصصات إلا أن الاطلاع عليها أصبح إما صعبا أو مهجورا، مع العلم أن تحقيق النصوص ونشرها حققت للأمة العربية تقدما حضاريا لم يصل إليه الغرب.

فما هي أسباب تراجع الاهتمام بهذا الإرث العلمي؟ وما هي الصعوبات التي تواجه العامل عليه؟ وما هي البدائل المساعدة على نقض غبار زواياه؟

الكلمات المفتاحية: التحقيق، مخطوط، محقق، صعوبات.

Abstract:

The Arab countries have a great wealth of manuscripts, including among their papers important materials in various specializations. However, the access to them has become either difficult or deserted, knowing that codicology and publishing texts have made the Arab countries achieve an unpreceded cultural progress, not even in the west. So, what causes the decline in interest in the scientific heritage? What are the difficulties facing who work on it? In addition, what alternatives help to change this situation?

Keywords: *Codicology, manuscript, codicologist, difficulties.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: محمد شيخ em.chikh@univ-blida2.dz

* جامعة البليدة 02 (مخبر الدراسات الأدبية والنقدية) em.chikh@univ-blida2.dz

يُعَدُّ التراث العربي بمصنفاته العلمية والأدبية في مختلف العلوم من أغنى صنوف التراث في العالم، وتتجلى أهمية المخطوطات وتظهر مكانتها من كونها جزءا من التراث الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية، ولم تعرف البشرية عبر تاريخها القديم، أمة غنية بإنتاجها المخطوط، وحريصة على اقتناء الكتب مثلما عرفت أمة العرب، ولقد خلفت هذه الأمة مصنفات في شتى المعارف، فأصحاب التخصص يقدرون عدد المخطوطات بحوالي ثلاثة ملايين مخطوطة متبقية حتى الآن من أصل بضعة ملايين كتبها العرب منذ لجوئهم إلى التدوين في القرن الهجري الأول.

ويعتقد بعض الدارسين أن التحقيق ظهر على يد علماء الغرب في بداية عصر النهضة، حين التفتوا إلى التراث اليوناني واللاتيني يقرؤونه بشغف ويبحثون فيه عن سند تاريخي لأصولهم المعرفية والعرقية، والحال أن الأمر بالنسبة إلى منشأ فكرة التحقيق مختلف تماما عن هذا الاعتقاد، ذلك أن العرب عرفوا التحقيق ومارسوه منذ فجر تاريخهم ويشهد على ذلك بعض المستشرقين النزهاء أنفسهم مثل فرانز روزنتال الذي وجه انتقادا لغيره من المستشرقين فيقول: "كثيرا ما يشوّه آراء الغربيين في البحث العلمي عند المسلمين شعورهم بالتفوق والعلو، شعورا لا يرتكز على منطق"[1] ويمضي في تدعيم قوله: "فمن العجيب حقا أن نسمع عالما أوروبيا يقول عن ياقوت الذي يرفض تصديق قصة الفارس الساحر البغدادي" يندر جدا أن يبدو ياقوت بهذا التعقل وهذه الرصانة في الوقت الذي نعلم فيه أن هذا المؤلف الغربي –بقطع النظر عن مؤهلاته العلمية-يبدو قزما إذا ما قيس بياقوت.[2]

فالتحقيق عرفه العرب إدراكا وممارسة منذ القديم وكانت ممارستهم له قائمة على أسس علمية والمستشرقون تلقفوا الفكرة وذهبوا بها إلى حد بعيد مستعينين بوسائل مادية مكنتهم من تطوير منهجهم في الوقت الذي حين كان فيه العرب يمرّون بمرحلة ضعف وانحطاط.

فهل نتوقف عند إحصاء النسخ وتوجيه اللوم تارة والثناء تارة أخرى على المستشرقين الذين سبقونا إلى نفض الغبار على خزائن الكتب المخطوطة، أم نسعى إلى

إحياء الإرث الحضاري وما يحويه من كنوز، خصص لها المستشرقون شبابهم ومالهم وأفردوا لها أبوابا ومجلدات؟

إن تحقيق النصوص علم دقيق له قواعد وأسس يرتكز عليها، وضوابط يخضع لها، وهو فوق ذلك ميدان صعب المراس يحتاج إلى محقق واسع الثقافة، شامل المعرفة، متنوع التخصص، محقق ينطبق عليه وسم: الموسوعة، ويتحلى بصفات تلقي على كاهله مسؤولية محفوفة بالصعاب.

يحتاج التحقيق إلى أمور بعضها متصل بالمحقق والبعض الآخر متصل بالمخطوط.

1. اتصل بالمحقق وهي:

- الرغبة والالتزام بتحقيق المخطوط، لأن هدف التحقيق لا يكمن فقط في نشر المخطوطات أو نيل درجة علمية[3]، وإنما يهدف أيضا لإحياء هذا التراث، فهو التزام حضاري.

- أن يكون عارفا باللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها وإملائها وأساليبها معرفة وافية.

- أن يكون ذا ثقافة شرعية عامة، مطلعا على علوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث.

- أن يكون ذا معرفة مجزية بالعلوم الأخرى التي دخلت الدراسات النحوية وتفاعلت مع علوم النحو أخذا وعطاء، كالمنطق والفلسفة وعلم الكلام.

- أن يكون على علم بأنواع الخطوط العربية وأطوارها التاريخية.

- أن يكون على دراية كافية بعلم المكتبات، مخطوطها ومطبوعها، ويعرف مصادر كل نوع وفهارسه وكيفية معرفة حال أي كتاب مطبوعا كان أم مخطوطا.

- أن يكون عارفا بقواعد العمل بتحقيق المخطوطات وأصول نشر الكتب.

- أن يكون عالما متخصصا بموضوع المخطوط أو النص الذي يريد تحقيقه.

- أن يكون ذا إلمام كاف بالمكتبة النحوية المطبوعة والمخطوطة.[4]

- أن يكون دقيق الملاحظة.

- أن يطلع على أعمال المحققين السابقين للاستفادة من تجاربهم وأساليبهم العلمية في عملية التحقيق.

- سؤال ذوي الخبرة والاختصاص خاصة فيما استغلق عليه.

- التحلي بالصبر والأمانة؛ فالتحقيق يمتص وقتا طويلا فعلى المحقق الالتزام بالتريث والنزاهة حتى لا يقع في التزوير.[5]

2. ما اتصل بالمخطوط:

- نقد الأصول نقدا علميا بهدف الوصول إلى الحقيقة، فالنقد الإيجابي عامل أساسي من عوامل التحقيق.

- التدقيق في التاريخ كتابة الوثيقة، والتساؤل عمّا إذا كان التاريخ يتلاءم واللغةَ التي كتبت فيها.

- التأكد من كاتب الوثيقة أو المخطوط فيما إذا كان بالفعل قد عاش في فترة كتابة الوثيقة.

- دراسة الأختام والتواقيع في حال وجودها على الوثيقة.

- التأكد من نوع الورق والحبر وفحصها.[6]

إن هذه الشروط مجتمعة غير كافية لإخراج نص على الصورة التي أرادها عليه مؤلفه، نص قد تكون مرت على كتابته فترة زمنية قد تصل أو تفوق القرن، وقد تواجه المحقق صعوبات أشدها: حصوله على المخطوط، فهو يقطع أشواطا طويلة في البحث عن النسخ وترتيبها وتفحصها ثم دراستها وتحقيقها فإخراجها ويفاجأ بعد ذلك المشوار أن النص الذي حققه سبقه إليه غيره وقد يكون محققا ومنشورا ويعود ذلك إلى غياب فهرسة للمخطوطات والمطبوعات وإن اعتماد سلم أولويات للوسائل المؤدية إلى نشر التراث العربي المخطوط بدءا بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة مركزية متبوعة بفهرسة المخطوطات العربية المطبوعة فهرسة مركزية تجنب المحقق:

أولا: تضييع الوقت في البحث عن المخطوط والمطبوع.

ثانيا: تقيه صدمة تلقي المخطوط محققا ومطبوعا.

هذه العملية، عملية الفهرسة تعد حلا يسمح بتسجيل التراث وفي الآن نفسه توفر جهدا ووقتا كبيرين، فلا أسهل على المحقق من أن يفتح الفهرس فيجد: عنوان المخطوط واسم المؤلف، عدد النسخ –أماكن وجودها-أرقام تصنيفها واسم الناسخ، أو يطلع على اسم المحقق أو المحققين ومكان وتاريخ الطبع ورقم الطبعة.

وتواجه المحقق صعوبات كثيرة منها:

1. **قبل التحقيق:**

أ. **التحري عن المخطوط:**

على المحقق التحري عن مخطوطة مناسبة لتحقيقها ويبدأ عادة بجرد الكتب والفهارس من مثل "تاريخ الأدب العربي" لكارل بروكلمان، أو كتاب "تاريخ التراث العربي" لفؤاد سركين، أو فهارس المخطوطات بمكتبة معينة –وما أكثرها-، يتحرى المحقق عن المخطوطة المراد تحقيقها ويأخذ فكرة أولية عن مؤلفها وقيمتها وعدد نسخها ومظانها وجودة خطها.

ب. **اختيار المخطوطة:**

إذا وقع اختيار المحقق على مخطوطة عليه أن يسعى إلى معرفة إن كانت منشورة أم لا، وإن كان محقق آخر يعد لنشرها.

- **الصعوبات:**

- يتطلب التنقل والتصوير جهدا ومالا كبيرين وقد يعود المحقق بخُفّي حُنين.
- بعد البحث والاستقرار على مخطوط، يصدم المحقق بوجود المخطوط في قائمة الكتب المنشورة.

2. أثناء التحقيق:

يجمع المحقق النسخ، وقد يكون محظوظا فتقع بين يديه النسخة الأم وهي التي كتبها المؤلف بنفسه، ويشرع في المقابلة بين النسخ بعد اتباع نظام القاعدة الذي أهمه:

- النسخ الكاملة أفضل من النسخ الناقصة.
- النسخ القديمة أفضل من الحديثة.
- النسخ واضحة الخط أحسن من غير الواضحة.
- النسخ التي قوبِلت ومثبت عليها هذه المقابلات التي أحسن من التي لم تقابل، ويواصل العمل بتصنيف النسخ –أ- و-ب- و-ج- ويبدأ عملية النسخ ويلتزم بـ:

1) قواعد رسم الكتابة المتفق عليها قديما إلا في أشياء درج عليها المعاصرون مثل رسم "مئة".
2) كتابة النص بحسب معانيه، وذلك بأن تقف الكتابة عند انتهاء المعنى.
3) استعمال علامات الوقف.
4) كتابة أرقام أوراق المخطوط المعتمد في صلب النص مع خط مائل تيسيرا للمقابلات.
5) استعمال الأقواس المزهرة لآيات القرآن.
6) وضع معقوفات لما يستدركه المحقق على النص.
7) التنبيه على ما يحتمل من النصوص قراءتين أو أكثر وضرورة التعليل.
8) تعريف الأعلام، والأماكن وشرح المبهم من المصطلحات.
9) تخريج الآيات والأحاديث والشعر والنقول كافة.
10) التنبيه على الأوهام والسقط والفراغات.

11) فهرسة الآيات والأحاديث والأمثال والحكم والكتب التي عاد إليها المحقق والتي ذكرها المؤلف أو أخذ عنها والمصطلحات العلمية والفنية إن وجدت.

- **الصعوبات:**

بعد كل هذا الجهد والعناء قد تصل إلى المحقق أنباء عن:

- وجود نسخة أجود كاملة وقريبة إلى عصر المؤلف.
- قد يجد فراغات كثيرة.
- لا يقف على أصحاب أبيات شعرية فيقضي وقتا طويلا لنسبتها إلى أصحابها، وقد يؤثر ذلك نفسيا ما ينعكس على مسار عمله.
- وجود أكثر من كتاب ضمن مجموع واحد.

كما يمكن أن نضيف إلى قائمة الصعوبات:

- **نسبة مخطوط إلى غير مؤلّفه خطأ**، وكم من كتاب مطبوع في الأسواق منسوب خطأ لغير مؤلفه، وذلك لعدة أسباب منها:

- لغاية تجارية: فيكون محو العنوان الأصلي ووضع عنوانا أجلّ وأعظم قدرا ليلقى رواجا، فيتعذّر على القارئ التفرقة أو الملاحظة.
- اشتباها.
- غفلة أو جهلا، وهو تزييف ساذج منشؤه الجهل غير المقصود.
- محو اسم المؤلف أو العنوان بسبب العوامل الطبيعية كالرطوبة أو الأرضة.
- خطأ المفهرسين للمكتبات.
- وجود أكثر من كتاب ضمن مجموع واحد.

- رداءة الخط؛ فنوع الحبر لا يصنع من مادة جيدة، وقد يكون غير مركز فلا يلبث أن يزول، فتزول أسطر كاملة أو يشرب الورق الحبر فينتشر فتنطمس الكتابة فلا ترى إلا بقعة سوداء.
- التآكل والانطماس وافتقاد الأوراق، ونقصد به الخرم.
- اضطراب الأوراق؛ فتكون غير مرتبة فيظهر الكلام غير سليم، والأصعب أن تكون الأوراق ملتصقة.

- **غرابة الموضوع**: إذ لا يكون به عهد، يختلف العصر الذي كتب فيه المخطوط عن عصر المؤلف أو المحقق ويكون بعيدا، فيستعصي الأسلوب المستخدم في المخطوط على المحقق، فيضطر هذا الأخير إلى الاطلاع على المؤلفات التي كتبت في ذلك العصر حتى يتمرس بأسلوب المؤلف.

- **الاختصارات والاصطلاحات**: الموجودة في الكتابة، فلكل مؤلّف رموز خاصة به، فيكون المحقق مضطرا لأن يتمرّس بالرموز.

- **أوهام النساخ**: وهما نوعان:

- **العالم**: يكون المخطوط قريبا منه أو ليفيد منه فيكتب ويفهم ما يكتب.
- **الجاهل**: تكون تلك حرفة يرتزق منها فقط، فينسخ جميع أنواع العلوم، وهو غير ملم بها فيكون أشبه بالمصوّر ينقل الشكل فحسب، فيقع في أوهام.

- **التصحيف**: مصدر: صَحَّف يُصَحِّفُ الكلمة إذا أخطأ في قراءتها أو روايتها في الصحيفة بسبب اشتباه الحروف[7]، وهو الالتباس في نقط الحروف المتشابهة في الشكل كالجيم والحاء والخاء، وهو نوعان:

- **تصحيف السماع**: في حالة الإملاء يخيّل إليك أنك كتبت الذي سمعته، لكنك لم تكتبه أو أنك تسجل كلمة تتفق مع كلمة أخرى في مخارج الحروف.

● **تصحيف البصر**: يخيل إليك أنك نقلت سطرا في حين أنك لم تكتبه، لأن السطر الذي نسيته ينتهي أو في وسطه لفظة هي نفسها الموجودة في سطر سابق.

– **التحريف:** تغير شكل (رسم) الحروف المتشابهة في الصورة كالدال والراء واللام.[8] وقد يكون التحريف سهوا كما قد يكون قصدا ويعود ذلك إلى كون النساخ أنواعا:

1. **ناسخ عالم:** وهو نوعان:

أ. ناسخ عالم يكتب ويفهم ما يكتب.

ب. ناسخ عالم يحرّف بنيّة نشر الكتاب إما إعجابا بمؤلفه أو طمعا في المال.

2. **ناسخ جاهل**: تكون تلك حرفته يرتزق منها، فيكون من الموهوبين ويكتفي بنقل الشكل دون روح أو معنى.

فعلى المحقق إن وقع على تصحيف أو تحريف أن يلجأ إلى أحد الأمرين:

1. أن يثبت الكلمة المصحفة أو المحرفة كما هي ويشير إلى صوابها في الهامش.

2. أن يصحح الكلمة المصحفة أو المحرفة ويشير في الهامش إلى الشكل الذي وردت فيه خطأ في النسخة التي يعتمدها، وفي كلا الأمرين يجب على المحقق أن يشير إلى الكتاب الذي استند إليه في تصحيحه ومسوغا هذا التصحيح.[9]

يتفرع عن التصحيف والتحريف معوقات منها:

– **السقط**: هو سقوط حروف أو كلمات وأحيانا جُمل، ومعالجته من أصعب الأمور إذ قال الجاحظ: "ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ، وشريف المعاني من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام."[10] ومن الأمور المساعدة على معرفة السقط، المقارنة بين النسخ، أو بين النسخ والمصدر الذي أخذ عنه المؤلف.

– **الزيادات**: إقحام نصوص داخل المتن ولكنها ليست منه، فأحيانا يتعالم الناسخ فيعتقد أن المؤلّف قد أخطأ فيغيّر ويضع ما يراه هو صوابا، وهذا النوع من الأخطاء لا تصدر إلا من عالم.

– **التكرار**: عند الكتابة يعتقد أنه لم يكتب الكلمة فيعيد كتابتها، وأحيانا يكون التكرار لجملة بكاملها، فيُحدِثُ اختلالا في المعنى يستعصي على القارئ إدراكه.

– **التقديم والتأخير**: يقدم الناسخ أو يؤخر كلمة عن أخرى فيختل المعنى ويصعب إدراك المعنى، ويكون الأمر خطيرا في حالة ذكر أسماء الرجال فمثلا: أنس بن مالك راوية رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب مالك بن أنس صاحب الموطأ.

– **الأخطاء الإملائية والنحوية**: وتصدر عن الذين يمتهنون مهمة النسخ، فلا يهم الفرق بين الذال والدال، ينفد وينفذ، بقدر ما يهمّهم إنهاء عملية النسخ في وقت وجيز قصير قصد الحصول على المقابل.

هذه أهم الصعوبات التي تواجه المحقق وتلحقها أخرى فعلى المحقق أن يكون صاحب ذكاء وصبر ميالا ومحبا للتحقيق، عليه أن يتسلح بحسّ نقدي؛ لأن تحقيق النصوص هو جزء من نقدها، ذلك أن تأصيل النصوص وتوثيقها ونسبتها إلى أصحابها عملية شاقة ودقيقة تتطلب ذوقا فنيا رفيعا، ومعرفة بتاريخ الأدب وتطور فنونه عبر العصور، وإدراكا لخصائص أدب العصر وأذواق الكتاب والشعراء، فعملية التحقيق رغم كونها متعبة إلا أنها ممتعة.

لقد تنوعت مواضيع البحوث وأطروحات الدراسات الأكاديمية وتميزت باتكائها على نظريات ومناهج غربية حديثة ولاهثة وراء الجديد مترفعة ومتنصلة عن كل رابط قديم أصيل والمانع في ذلك غياب التوجيه. فلا بد من تشجيع الطلبة على نشر الكنز المخبوء من التراث الذي عرف الغرب –عن طريق المستشرقين-قيمته ودلنا عليه وأقدم على نشر بعضه[11]، ولو لم تكن دراسته ذات أهمية وفائدة لما هاجر إليه المستشرقون، والتاريخ يشهد على القفزة التي حققها الغرب بفضل الآثار المعرفية التي تعتبر قمة العمل العلمي الذي أسهم في تقدم ركب الحضارة في العلوم والمعارف المختلفة.

ومحاولة لتحقيق ذلك علينا أن نقدّم الأهمّ على المهمّ، وتقديم الأصول على الفروع والمختصرات وتقديم ما لم ينشر على إعادة ما نشر، والتسامح بتجديد نشر المطبوعات التي لم تراع في تحقيقها القواعد العلمية ووضع فهارس تفصيلية تعرف المخطوطات التي يوفّق للظفر بها، ينشرها على المؤسسات التراثية في الوطن العربي ويصنع فهرسا موحدا شاملا لِما دُوِّن في فهارس المكتبات العامة والخاصة، تيسيرا للباحثين. ويحبذ أن ينشأ مركز في أحد الأقطار العربية وفروع لهذا المركز في الأقطار الأخرى، ويتفرّغ لها بعض العلماء على أن تُهيَّأ لهم أسباب التفرغ مادةً ومعنًى.

ويبقى فتح تخصص تحقيق المخطوط في المؤسسات الجامعية وتكوين طلبة في الميدان لبنة من لبنات الحفاظ على التراث العلمي وأساسا من أسس البناء الحضاري.

الهوامش:

[1] مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، فرانز روزنتال، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة بيروت، ط4، 1983، ص18.

[2] نفسه، ص19.

[3] ينظر، منهج تحقيق المخطوطات، أسد مولوي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ربيع الأول 1408هـ، ص11.

[4] أصول كتابة البحث العلمي وتحقيق المخطوطات، يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص31.

[5] مناهج تحقيق التراث والمخطوطات العربية، حسان حلاق، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص148.

[6] مناهج الفكر والبحث التاريخي، حسان حلاق، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1991، ص14.

[7] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 9، مادة (ص/ ح/ ف)، 118.

[8] ينظر، تحقيق النصوص ونشرها، نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، 1975، ص105.

[9] تحقيق المخطوطات العربية، جان عبد الله توما، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1، 2011، ص40.

[10] الحيوان، الجاحظ عمر بن بحر، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل ودار الفكر، بيروت، ج1، ط1، 1988، 79/1.

[11] أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، معدي فضل الله، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1993، ط4 2006، ص140.